Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شـــاد مـــا لـــم يشـــد زمـــان ولا أنشأ عصـــر ولابنـــى بنـــاء
هيكـــل تنـــثر الديانـــات فيـــه فهـــى والنـــاس والقـــرون هبـــاء
زعَمـــوا أنهـــا دعـــائم شِـــيدت بيـــد البَغْـــى ملؤهـــا ظلمـــاءُ
فـــاعذر الحاســـدين فيهـــا إذ لا موا فصعبٌ على الحسود الثناءُ

ويلاحظ فى القصيدة عموماً الطابعَ الجدلى فى الدفاع الحضـارىّ عـن فكـرة الحرية ونفى تهمة السُّخرة التى أشاعها اليونان عن سبل البناء العمرانىّ فى مصر. كما يلاحظ من جانبٍ آخر انتقالُ الفخر إلى الأمة والتغنى بآياتها الفَنِّية، وهـذه نقلـة كبرى فى دائرة اهتمام الشعر.

غير أن بوسعنا أن نعتبر بزوغ الوعـى التـاريخىّ فـى خطـاب النهضـة هـو البداية الحقيقية للعصر الحديث فى الثقافـة العربيـة، فقبـل هـذا العصـر كـان مفهـوم الزمن يعتمد على نموذج الانحـدار مـن الـذروة إلـى السـفح، فالحركـة تمضـى إلـى تدهور دائم، لأن العصور الذهبية هى الماضية والحـاضر نـزول إلـى الأدنـى، أمّـا المستقبل فهو إطلال على الهاوية التى تمثلها القيامة بأشراطها المتداولة.

وقد كرست بعض الأحاديث التى نُسبت للرسول لتأصيل هذا التصور فى قوله: "أفضل العصور قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"، ولو صح مثل هذا لحديث لكان مقصوراً على أمور الدين فحسب، أمّا أمور الدنيا والحياة فإن حركة الزمان فيها تتقـدم بتراكم الخبرة ونمو المعرفة . وقد جاءت نظريات التطور وبقاء الأصلح لتدعم الأسس العلمية فى قلب هذا المنظور إلى الاتجاه العكسىّ، وكـانت الفلسـفة قـد رسـخت مبـادئ الوعى التاريخىّ بالمراحل الكبرى للإنسانية على النمط التقدمىّ.

فعندما يأتى الشعر ليتغنـى بالمـاضى الحضـارىّ وأمجـاده الزاهـرة فـإن مـن اليسير عليه أن ينزلق لمجاراة تصور العصـور الماضيـة باعتبارهـا الـذروة، وهنـا نعثر على المحك الحقيقىّ لمدى تأصُّل الفكـر الحديـث فـى الخطـاب الشـعرىّ، هـل يقدم لنا منظوراً سليماً للتاريخ، أم يقع بسهولة فى شَرَك الحنيـن للمـاضى لملاحظـة تدهور الحاضر وانحطاطه؟ عندئذ نجد موقف شوقى بالغ التماسـك والوضـوح فـى